طبيعة العلاقات التربوية والبيداغوجية داخل المدرسة المغربية وتداعياتها على الحياة المدرسية

الحافظ بشرى

يعتبر موضوع العلاقات التربوية والبيداغوجية، من المواضيع التي استأثرت باهتمام كثير من الباحثين والدارسين، كل حسب تخصصه ومجال إشتغاله، حيث تشير معظم الدراسات في هذا الصدد إلى أن هذا الموضوع مركب الأبعاد و متداخل العناصر، وذلك بفعل تنوع و تشابك العوامل التي توجهه وتمارس عليه التأثير. وهذا ما يتطلب إذا ما أريد تحقيق فهم دقيق وشمولي له مقاربته من زوايا مختلفة (علم النفس/السيكولوجيا/السيكوسوسيولوجيا...) تتظافر في ما بينها لتضفي على الموضوع ككل طابعا عمليا معقلنا خاضعا من جهة لمعطيات البحث العلمي، ومن جهة أخرى لخصوصيات الواقع المعيش الذي تحاك فيه.

فطبيعة العلاقات التربوية والبيداغوجية تتأثر وبعمق بالخصوصيات الذاتية نفسية، بيولوجية، ثقافية، اجتماعية للأشخاص المنخرطين فيها.....

هؤلاء الذين تؤكد معطيات الواقع المعيش، أن العلاقة التواصلية التربوية القائمة فيما بينهما غالبا ما لا تلقى القبول المطلوب نظرا لعامل اللاستقرار الذي تعرفه من جهة، وكذا الاختلالات التي تصيبها من جهة أخرى.

وهذا ما يفرض بالضرورة اقتراح حلول عملية تتجاوز ما هو بسيط والمتمثل في اكتساب المعارف والكفايات الأساسية المؤهلة والملائمة إلى ما هو أعمق والذي يطال مستقبل هذا المتعلم بوصفه مواطنا وفردا في المجتمع،في أفق الإحساس بتداعياتها على مستوى السلوك المدني والمواطنة الحقة والقدرة على المبادرة وتحمل المسؤولية.

إن السمات العصرية التي يعيشها العالم اليوم بتغيراته الحالية المتسارعة ، وما صاحبها من انفجار معرفي متضاعف في سائر العلوم، شكل تحديات وضغوطا كبيرة على كافة مؤسسات المجتمع بشكل عام وعلى مؤسسات التعليم بشكل خاص، فعليها يقع العبء الأكبر في إعداد أفراد قادرين على مواجهة تلك التحديات بكل مرونة واقتدار،وحتى تحقق التربية هدفها، كان لابد لها أن تراعي كافة المتغيرات المؤثرة في عملية التعلم،والنظر للعملية التعليمية بطريقة

كلية متكاملة،وقد ظهرت في الميدان التربوي العديد من النماذج التطويرية منها أنموذج تطوير التعليم المعتمد على المدرسة الذي يسعى للتغيير من أسفل إلى أعلى مع دعم من أعلى إلى أسفل والذي تولي فيه مؤسسات التربية والتعليم بناء شخصية المتعلم القادر على التعلم الذاتي أهمية بالغة،وتقوم بدورها في التحول نحو مجتمع المعرفة وتغيير نمطها في إدارة عمليات التعليم والتعلم من الطريقة التقليدية المعتمدة على تلقي المتعلم للمعلومات إلى نمط قيادة عمليات التعليم بتسهيل وتيسير عمليات التعلم وتطوير مهارات المتعلم النشط ليقوم بدوره في بناء المعرفة وإنتاجها.

وهكذا فقد تزايد الاهتمام بالتربية على مر العصور بزيادة وتعقد الحياة وتراكم الخبرات الى ان اصبحت التربية ضرورة من ضروريات الحياة، واتخذتها الانسانية سبيلها الى البقاء والمضي الى الامام . ومن تم باتت التربية الوسيلة للاندماج في المجتمع والتعرف عليه اكثر والاخد منها للمساهمة في تطويرحياة الانسان بشكل عام ،وهكدا ظهرت المدرسة

كمنظمة اجتماعية تقوم على توفير البنية الاجتماعية المناسبة لتنشئة الافراد على النحو الافضل ،ومع هذا التطور السريع للمدينة تطورت مسؤوليات المدرسة ووظائفها اذ كلما ازدادت قدرة الناس على الكشف والتعلم ازدادت معيشتهم تعقدا وازدادت حاجاتهم الى مؤسسات التربية لمجابهة هذا التغيير والتطور.

فالمدرسة كما هو معروف هي تلك البيئة الصناعية التي اوجدها التطور الاجتماعي لكي تكمل الدور الذي مارسته الاسرة في تربية واعداد ابناءها. ومدهم بالخبرات اللازمة لدخولهم معترك الحياة فيما بعد، فهي لذلك تعتبر الحلقة الوسطى والمهمة التي يمر بها الاطفال خلال مراحل نموهم ونضجهم لكي يكونوا جاهزين للقيام بمسؤولياتهم في المجتمع مستعينين بما اكتسبوا من المهارات المختلفة والضرورية لتكيفهم السليم مع البئية الاجتماعية الكبرى، وذلك لان المدرسة

ليست سوى مجتمع مصغر،متزن وخالي من جميع الشوائب التي تتعلق بالمجتمع الكبير،لكي يتمرن فيها الاطفال على الحياة الفضلى وعلى التعاون الاجتماعي والاخلاص للجماعة والوطن.

شهدت منظومة التربية والتكوين عدة إصلاحات على مستويات عدة، لامست جوانب مختلفة من الحياة المدرسية، واستطاعت أن تحقق إنجازات مهمة، وأرقام لا يستهان بها، رغم أن التقدم الحاصل لم يرق إلى المستوى النوعي للجودة المنشودة، ولم يستجب بدرجة كافية لتطلعات المجتمع وطموحات الفاعلين التربويين، وحاجيات المستفيدين من الخدمات التربوية، وهو ما يستلزم ضرورة تفعيل الإصلاح داخل مؤسسات التربية

والتكوين على مستويات عدة، لعل من أهمها مستوى العلاقات التفاعلية بين الأطراف المتداخلة في العملية التعليمية التعلمية بغية تنشيط الحياة المدرسية، وتفعيل أدوارها وبالتالي تحقيق التنظيم الملموس داخل المؤسسات التعليمية.

هذا الفضاء الذي تنسج ضمنه خيوط علاقات متداخلة، مركبة ومتشعبة، تكون أعقد في بعض الأحيان مما قد تتصوره الذات الإنسانية، ناهيك عن تبعاتها المختلفة.

ولهذا فدراسة العلاقة بين الأفراد كانت لها أهمية في كتابات العلماء والباحثين خاصة العلاقات الإنسانية وما لها من دور في المؤسسات الاقتصادية والإدارية في زيادة الإنتاج، أو تلك العلاقات السوسيومترية بين التلاميذ في الفصل الدراسي، وما تفرزه من مكانة للفرد بين أقرانه تعكس الفروق الفردية بينهم.

وتعد العلاقات التربوية والبيداغوجية من بين العلاقات التي تنشأ في الجماعة المدرسية وتشمل عدة أطراف، يعد المدرس أحد أهم أقطابها خاصة من منظور التربية التقليدية، والتلميذ أحد أبرز اهتمامات التربة الحديثة.

لذا فكل اهتمام بالحقل المدرسي يفرض علينا أن نميز بين مفهوم العلاقة التربوية والعلاقة البيداغوجية، وطبيعة العلاقات التربوية السائدة في مؤسساتنا التعليمية؟ وما هي خصائصها ؟ ثم ما هي العوامل المحددة لطبيعة تلك العلاقات خاصة منها ما يرتبط بالمدرس (ة) والمتعلم (ة) ؟ وما سبل تحسين جودة تلك العلاقات في أفق إخراج متعلم مكتسب لكفايات ومهارات ومعارف أساسية، تؤهله وتلائمه، تطاله بوصفه مواطنا وفردا في المجتمع في أفق الإحساس بتداعياتها على مستوى السلوك المدني والمواطنة الحقة والقدرة على المبادرة وتحمل المسؤولية .

أولا : مفهوم العلاقة التربوية والعلاقة البيداغوجية

فالعلاقة التربوية هي مجموع التفاعلات التي تحدث داخل جماعات التعلم، والتي تتم – في الوقت نفسه- بين المدرس والمتعلمين، وبين المتعلمين أنفسهم، وبين المدرس والمتعلمين ومواضيع التعلم.والإطار العام الذي تحدث في سياقه هذه التفاعلات هو الوضعيات التعليمية التعلمية.

وبناء عليه، فإذا ما نظرنا إلى جماعة التعلم من حيث هي فضاء تتم فيه عمليات التعليم والتعلم، فقد وجب القول إنه لا يمكن أن تختزل هذه الجماعة في كونها مجرد تجميع لعدد من الأفراد (مدرس ومتعلمين) يساهم كل منهم بحصته الفردية، بل ينبغي النظر إليها أولا وقبل كل شيء على أنها كتلة تمارس داخلها تأثيرات متبادلة بين الأعضاء.

فالمدرس والمتعلمون يشكلون على حد سواء حقل تفاعلات اجتماعية، ويقيمون

شبكة من العلاقات الوجدانية،وعلاقات الانجذاب والتنافر والتعاطف والكراهية. وتحدد بنية هذا الحقل،في الوقت ذاته، الكيفية التي يشارك بها كل من المدرس والمتعلمين في عملية التعليم والتعلم،ومن ثمة شكل العلاقة التربوية.

لذلك يمكن القول مع «J.C.Filloux»:« إن العلاقة التربوية تعامل وتفاعل إنساني يتم بين أفراد يوجدون في وضعية جماعة. وإذا ما اعتبرنا أن الفضاء الذي تحدث فيه عمليات التعليم والتعلم هو في الغالب الأعم حجرة الدرس (الفصل الدراسي)،فمن الواضح أن تؤسس داخل هذه الفضاءات علاقات دينامية بين المدرس والمتعلمين تتخذ شكل انخراط في عملية تواصل مركبة،وتبليغ للرسائل، وتبادلات وجدانية، وعمليات استكشاف ومقاومة»[1].

أما العلاقة البيداغوجية فهي تفهم في ضوء :

- العوامل السوسيولوجية والثقافية (الفعل التربوي والمجتمع ،تصور الطفولة، السلطة التربوية من خلال التحديد العام الذي تعطيه الثقافة الاجتماعية للسلطة... إلخ).
- العوامل التنظيمية الخاصة بهيكلة المجال المدرسي (مفهوم المدرسة، الحياة المدرسية ومبادئ تنظيمها وقواعد عملها، معايير التمدرس والأسلاك التعليمية، الحياة الفصلية وديناميتها الداخلية من تفاعلات وتمثلات حول المدرس والتدريس، المجال المدرسي،التعاقد البيداغوجي).
- العوامل البيداغوجية (الثقافة المدرسية،هيكلتها،الحوامل الديداكتيكية،وضعيات التدريس،وضعيات التعلم وتقويمه).[2]

وهكذا تتم هذه العلاقة التربوية داخل المجال المدرسي عبر وسائط وتقنيات وقواعد عمل بيداغوجية وديداكتيكية،وتتحول بذلك إلى علاقة بيداغوجية دون أن تفقد علاقتها ببنيات المجال الاجتماعي.

وعليه،فمجال العلاقة البيداغوجية هو الحقل المدرسي. ورغم وحدة هذا الحقل، فإن العلاقة البيداغوجية لا تتم تاريخيا بكيفية واحدة ومتجانسة، بل تعكس التمثل الثقافي العام أو الغالب للتربية والتكوين والسلطة البيداغوجية، بل هي تميل الآن إلى أن تتنوع بحسب الخبرات التربوية للمدرس ونوعية الجماعة الفصلية، وطبيعة تنظيم الحياة المدرسية عامة.

إن محاولة استقراء التاريخ بشقيه القديم والحديث للبحث عن كيف تم تناول العلاقات التربوية[3]، يدفعنا إلى القول بأن هذا الموضوع قديم قدم الفعل التربوي. تم تناوله[4]، وما يزال غضا طريا بالنسبة لأقلام العديدين من الكتاب والمبتدئين لمحاولة النبش فيه واستخراج مكنوناته وجواهره، تلك الجواهر التي يمكن أن يغفلها القدماء

منهم، ويستحضرها كتاب التربية الحديثة الذين انبرت في عهدهم تصورات جديدة حاولت وما زالت تحاول ملامسة الموضوع من جوانب عدة وفق مقاربات قديمة في صيغة قالب حديث.

ثانيا : طبيعة العلاقات التربوية والبيداغوجية بالمؤسسات التعليمية

إن محاولة تشخيص طبيعة العلاقات التربوية والبيداغوجية القائمة ضمن مؤسساتنا التعليمية، يدفعنا إلى القول بأنها علاقات تربوية معقدة ومركبة في أصلها وطبيعتها، غير متكافئة بحكم طبيعة الأطراف المشكلة لها، ونظرة كل طرف إلى الآخر .

هذه العلاقة يمكن النظر إليها من زاوية العلاقات الإنسانية الشاملة[5]، والمحتمة لتوفير مناخ وجو تربوي وعاطفي إيجابي مبني على الحب والاحترام والمعاملة الطيبة والأخلاق والقيم الإسلامية. ذلك أن النظر إلى الأطراف المشكلة لهذه العلاقات لا ينبغي أن يكون مجرد مفاهيم ومصطلحات (مدرس/ متعلم) ، بل كأشخاص واقعيين يؤثرون فيمن حولهم، ويتأثرون بما يحيط بهم .

ولعل العلاقات التربوية الإيجابية التي يمكن أن تبنى بين مدرس/ متعلم، لن تنوح على أن تعكس صورة من علاقات الأب بأبنائه، تتسلح بالرغبة في نفعهم، تعمل على الشفقة عليهم والبر بهم، وتستهدف تحقيق الخير للجميع، وترسم طريقا لتحقيق احترام الحقوق وتفعيل الواجبات،

وأن تكون علاقة مؤسسة على المعاملة الطيبة والاحترام المتبادل قوامه الفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية .

ويبدو جليا أن هناك عدة عقبات وعراقيل وعوائق تحول دون وضع الحجر الأساس لتأسيس أشباه هذه العلاقة المأمولة والمنشودة، وهي – أي العوائق- بدورها تتسم بطابع التنوع فمنها ما هو نفسي ذاتي، ومنها ما هو موضوعي، اجتماعي، اقتصادي وسياسي، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: تفشي ظاهرة الأمية/ غياب الوعي بثقافة الطفل وحاجاته/ استخدام طرق بالية كآليات للتقويم/ غياب التكوين المستمر للمدرسين(ة)/ ضيق الوقت المخصص لبعض المواد/ التركيز على الجانب الكمي في صياغة المقررات/ هشاشة البنيات التحتية للمؤسسات التعليمية..... .

غير بعيد نلاحظ أن المدرسة المغربية، كانت تعمل وفق مقاربات بيداغوجية قديمة تندرج ضمن النموذج التربوي التقليدي المتميز بمركزية المدرس وأحقيته في ممارسة سلطة شبه مطلقة باعتباره مصدر المعرفة والتلميذ كمجرد طرف سلبي يتلقى هذه المعرفة، هذا الإقصاء لهذا التلميذ(ة)/المتعلم، هو الذي حدا بأفلاطون إلى تشبيهه (أي التلميذ) بشجرة صغيرة ينبغي تقويم اعوجاجها باستمرار إذا لم تنبت بشكل سليم.

هذه النظرة ومثيلاتها جعلت من العلاقات التربوية والبيداغوجية السائدة في ردهات الفصول الدراسية لمدة غير يسيرة، تكرس نمطا من الممارسات البيداغوجية الكلاسيكية المنتقدة، الغير متكافئة والغير مرغوب فيها على اعتبار نتائجها السلبية التي تنتج عنها أثناء ممارستها .

ورغبة في تجاوز الماضي بسلبياته، دشنت المدرسة المغربية إصلاحات عميقة ومعمقة، هدفت في جانب منها- وإن كان خفيا- إلى ملامسة العلاقات التربوية والبيداغوجية داخل فضاءات الفصول الدراسية، وذلك باعتماد مقاربات حديثة تندرج ضمن النموذج التربوي الحديث أو التربية الحديثة.

تلك التي تقوم على مركزية المتعلم في فعل التعليم والتعلم على اعتبار انه يمتلك قدرات ومهارات تمكنه من الخلق والإبداع والابتكار والمبادرة.

والأكيد أن واقع الممارسة التعليمية ببلادنا يؤكد ما قلناه من خلال تبني العمل بالمقاربة القديمة من جهة، وما ترتب عنها من سلبيات عديدة، ثم محاولة التخلص من الماضي الدفين بنقائصه وتناقضاته الجمة.

وهكذا فإن من شأن العلاقة البيداغوجية المبنية على اللين، الحب، التفاهم والإقناع، أن تكون بديلا فعليا للعلاقة المبنية على التعنيف وتمركز الدور التقليدي للمدرس .

وبالجملة يمكن أن نميز بين شكلين أساسيين من العلاقة التربوية السائدة في مؤسساتنا التعليمية:

- علاقة تندرج ضمن النموذج التربوي التقليدي : ومن بين مميزاتها مركزية المدرس- امتلاكه وممارسته لسلطة شبه مطلقة- المدرس مصدر المعرفة-، والتلميذ مجرد طرف سلبي يتلقى المعرفة وتمارس عليه سلطة المدرس-، ومن هنا فالتفاعلات في هذا النموذج ذات اتجاه وحيد أي من المدرس نحو التلاميذ.
- علاقة تندرج ضمن النموذج التربوي الحديث أو التربية الحديثة : ومن بين مميزاتها التلميذ (فردا أو جماعة) هو مركز فعل التعليم-التعلم،المدرس مجرد موجه أو مرشد- المعرفة ناتجة عن نشاط التلميذ ومرتبطة بانشغالاته وليست صادرة عن المدرس-، ومن تم فالتفاعلات في هذا النموذج عامة وشاملة أي تتم بين التلاميذ في أغلب الأحيان وبينهم وبين المدرس[6].....

ثالثا : العوامل المحددة لطبيعة العلاقات التربوية والبيداغوجية

إن الحديث عن العلاقات التربوية والبيداغوجية لا يمكن أن يتم بمعزل عن المحيط الذي تنسج ضمنه تلابيب هذه العلاقات، لما له من تأثير كبير في رصد الظاهرة التربوية وفهمها بشكل عميق ومعمق.

فطبيعة العلاقة التربوية تتأثر

وبعمق بالخصوصيات الذاتية – نفسية، بيولوجية، ثقافية، اجتماعية ... للأشخاص المنخرطين فيها.

إن المشاركة الفعلية للمدرس والتلاميذ في سيرورة تعليمية-تعلمية، ما إن تتم في واقع الأمر، من منطلق كونهم ذواتا واقعية متمايزة ومتميزة.

فالتلميذ كمفهوم مجرد، لا يتمتع إلا بوجود ذهني، أما على مستوى الواقع العيني، فهناك تلميذ محدد يرتبط بوسط عائلي ومحيط اجتماعي معينين، يشكلان بدرجة كبيرة ملامح شخصيته ويمتلك بنية نفسية خاصة به وإرثا بيولوجيا وثقافيا محددا..... ويكون لكل ذلك تأثير لا على طريقة ووتيرة تعلمه فحسب، بل وأيضا على علاقاته بالمواد التعليمية وبالمدرس وبأقرانه....، وبصفة عامة، على سلوكه وطريقة مشاركته وأسلوب انخراطه في التفاعلات التي تطرأ داخل جماعة القسم.

ونفس الشيء يمكنه تأكيده بالنسبة للمدرس، إذ تشير العديد من الأدبيات التربوية، إلى أن الاختلافات بين المدرسين، كالعمر والجنس، والتجربة في التعليم، وسمات الطبع والمزاج، والمادة المدرسة، والتصورات عن الطفل (التلميذ) تؤثر جميعها على أشكال التفاعلات ونوعية المناخ النفسي- الاجتماعي داخل القسم. بل إن مواقف المدرس العلائقية في إطار جماعة القسم، كثيرا ما تتأثر بطريقة فهمه وتعامله مع عوامل أخرى: كقوانين المؤسسة المدرسية[7]، والطابع النظامي للتعليم، ونوعية علاقاته برؤسائه، وعلاقته بأولياء التلاميذ[8].... .

لقد بات من الواضح والملموس، -في عصرنا الحاضر- أن الدور الحقيقي للمدرس بدأ يتقلص تدريجيا على حساب دور التلميذ، بحيث لم يعد المدرس هو محور العملية التعليمية التعلمية، بل المتعلم خطف منه هذا الدور، وأضحى معه المدرس فاقدا لدوره التقليدي، الذي تقادم أمام ترسانة النظريات البيداغوجية الحديثة، التي جعلت من المتعلم قطب الرحى في العملية التربوية.

هذا التصور الصاعد لم يجد بعد مكانته وتربته الخصبة لكي ينمو، وذلك بفعل اصطدامه بآراء وتصورات تقليدية لدى العديد من الفاعلين في الحقل التربوي.

ولا غرابة لهذا الأمر إن وجدنا أن ثقافة حقوق الإنسان بصفة عامة والطفل بصفة خاصة، لم تستوعب بعد من قبل كثير من المدرسين بسبب عوائق ثقافية مختلفة، إذ ما زالت النظرة الدونية الاستصغارية للطفل سائدة، فكل ما يأتي منه أو به أو له لا يلقى العناية والتقدير.

ولكن التربية الحديثة، وفق تصوراتها السائدة ماضية في العمل من أجل أن يتبوأ هذا التلميذ صدارته ومكانته ضمن العملية التربوية، فأصبحت تركز اهتمامها على مواضيع جديدة من قبيل : تطور الطفل، نمو

الشخصية، القدرة على التعبير والإدماج، والقدرة على البحث والابتكار.

وحتى يتسنى لنا فهم العلاقات التربوية البيداغوجية داخل الفصل الدراسي، من زاوية العوامل المحددة لتلك العلاقات، يستلزم الأمر منا مقاربة هذه النقطة عبر عتبتين :

العتبة الأولى : على المستوى البيداغوجي

يقودنا البحث إلى الوقوف على ثلاث نماذج تعليمية، يمكن أن نركز عليها في تحليلنا للعلاقة البيداغوجية، ويشمل كل منها عددا من الطرق التربوية المختلفة.

- النموذج المتمركز حول المدرس : هو نموذج يقوم على دور المدرس في فعل التعليم- التعلم، فهو بكفاءته ومهارته وتجاربه ومعارفه، الفاعل الأساسي في هذا الفعل التعليمي، فنجاح هذا الفعل رهين بتوفر هذه الشروط.

- النموذج المتمركز حول التلميذ : يقوم على فاعلية التلميذ في فعل التعليم –التعلم، فهو يأخذ بعين الاعتبار شخصية التلميذ الايجابية وقدراته العقلية، وميولاته الوجدانية وبنيته النفسية.

- النموذج المتمركز حول المعرفة : هو نموذج يقوم على أهمية المادة أو المحتوى، فلا مواصفات المدرس ولا خصائص التلميذ تعتبر فعالة في فعل التعليم- التعلم، بل إن طريقة تنظيم المحتوى وبنيته هي مركز التعلم.

وبما أن موضوع بحثنا هو العلاقات التربوية والبيداغوجية داخل الفصل الدراسي، فإننا سنقتصر فقط في تحليلنا على النموذجين الأوليين :

مميزات النموذج المتمركز حول المدرس

يتميز هذا النموذج باستعمال الطريقة الإلقائية حيث يقوم على تبليغ وإلقاء المحتوى والمعرفة، من طرف المدرس باعتباره مالك لهذه المعرفة إلى التلميذ باعتباره جاهلا لها. وفي هذا النموذج يمتاز المدرس بثلاث وظائف وهي :

- الإنتاج : فهو الذي يخطط لتطور الدرس زمنيا على شكل مراحل وتقطعات، وهو المسؤول عن إنجاز الدرس أمام التلميذ وليس معه.

- التسيير : حيث أن المدرس يتكلف بمهمة تسيير جماعة القسم وتنظيمها. إذ هذا التنظيم يخدم بالأساس دور المدرس في تلقين المعرفة.

1 – الضبط : إنه يراقب التلاميذ، وقد يعاقبهم عقابا ماديا أو معنويا ،يطلب الجواب من هذا التلميذ وينبه الآخر بالانضباط إنه في نهاية الأمر هو صاحب المبادرة وصاحب السلطة.

وبالجملة فهذا النموذج يقوم على اعتقاد أن المعرفة ذات وجود قبلي، وهي سر يجب تبليغه من عارف إلى جاهل، وبهذا تصبح هذه المعرفة أداة للقوة والسيطرة،

هذا ما يسمى بالدوغماطية أي الإلقائية. وكذلك إن هذا النموذج ينبني على تصور سلبي للتلميذ، حيث إنه لا يمتلك قدرات على بناء المعرفة، فهو دائما بحاجة إلى المدرس كوسيط بينه وبين المعرفة.

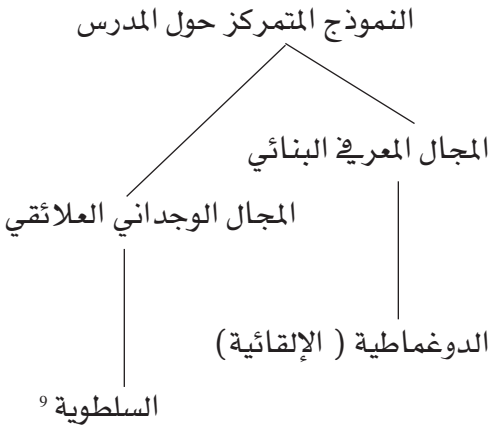

[9]

مميزات النموذج المتمركز حول التلميذ

إن هذا النموذج يقوم على طرح المشكل من طرف المدرس من خلال وضعيات مناسبة، حيث يحفز التلاميذ للبحث عن المعرفة واكتشافها مما يتيح للتلاميذ توظيف قدراتهم العقلية من أجل الفضول والابتكار.

وبالجملة فإن هذا النموذج يقوم على أساس التفاعل بين المدرس والتلميذ من خلال إتاحة الفرصة للتلميذ للتعبير والاكتشاف والمبادرة دون الاتكال على المدرس [10].

العتبة الثانية : على المستوى النفسي الانفعالي فعوض أن تكون مؤسساتنا فضاء آمنا يحظى فيه المتعلم بالاحترام والتقدير ومكانا لصقل مهاراته وقدراته، وحقلا يضمن له ممارسة حقه في التعبير الحر عن آرائه وتصوراته. فعلى النقيض من ذلك طفت على السطح ظواهر أشد ما تكون ضررا على صحة ونفسية المتعلم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : ظاهرة العنف بالمؤسسات التعليمية.

لقد بات من الطبيعي والمؤكد، أن الممارسين داخل الفصول الدراسية، صاروا مقتنعين بعدم جدوى استعمال العنف داخل مؤسساتنا، وطبيعي جدا أن إحساس الطفل بانعدام الأمن وفقدان الحنان والعطف سواء داخل الأسرة أو على صعيد المؤسسة، يدفعه إلى الإحباط والشعور باليأس

والكراهية، فيتعامل مع محيطه بعدوانية، وهذا ما يؤدي إلى خلل في نموه واختلال في شخصيته،

وهذا ما يؤثر سلبا على تحصيله، فكلما أحس الطفل بالقلق، كلما قل تحصيله الدراسي، ذلك أن القلق يؤدي إلى التوتر والتوتر يؤدي إلى انخفاض التركيز والانتباه.

كل هذه الأساليب[11] من شأنها أن تعقد مهمة التعلم والاكتساب، وتكون عائقا أمام تحقيق الأهداف التربوية المرجوة من جهة، ومن جهة ثانية، تؤثر على المتعلم من الناحية السيكولوجية، حيث تخلق لنا هذه الوضعية أي وضعية الخوف، شخصية مضطربة، خجولة، ومنطوية على ذاتها، تهيمن عليها حالة القلق الدائم.

ينبغي أن تزول هذه التصورات والأساليب، في التعامل مع شخصية الطفل،

وتندثر لتحل محلها ثقافة الحوار وتكافؤ الفرص، مع إعطاء كامل الحرية للمتعلم لاختيار مادة تعلمه حسب حاجاته وميولاته وكذا قدراته العقلية، ومن ناحية أخرى وسعيا وراء تجنب أي حالات خوف لدى الأطفال، يتطلب الأمر استعمال استراتيجيات محددة للحد من انعكاسات هذه الظاهرة،

والتسلح بالمعرفة الحقيقية حول الطفل، حتى نكون قريبين منه لكي نفهم إحساساته ونحلل سلوكاته[12].

العتبة الثالثة : على مستوى طرق ووسائل التدريس مازالت الطرق البيداغوجية بالمدرسة المغربية عقيمة وعتيقة، تعتمد بالدرجة الأولى على المدرس فهو المركز ومحط الأنظار، والحوار داخل القسم يتم بطريقة عمودية (أستاذ تلميذ)، وهذا يؤدي إلى أخطاء تربوية تدخل الاضطراب على علاقة الطفل بمدرسه، وتلون النشاط المدرسي اللاحق بشعور أليم، وافتقاد للأمن، يحول في آن واحد دون الثقة بالذات والثقة بالمعلم. وإذا أضفنا إلى أن هذه الوسائل الديداكتيكية التي يمكن أن تكون سندا لتحريك الدافعية، وإيجاد الرغبة لدى التلميذ المتعلم تؤكد أن المدرسة المغربية إذا بقيت على حالها هذه فإننا لن نحصد منها إلا خيبة الأمل .

ثالثا : سبل تحسين العلاقات التربوية

إن سبل تحسين العلاقات التربوية بما تقتضيه من توفير للشروط الضرورية والأساسية لحفز التلميذ وحمله على المساهمة والمشاركة ايجابيا في إنشاء المعرفة وتملكها والإقبال على عملية التعليم والتعلم، يقتضي إرادة حقيقية لدى كافة الفاعلين والمهتمين بحقل التربية والتكوين، وبالتالي قرارات حاسمة لأن الحاجة ملحة شئنا أم أبينا لإصلاحات جذرية عميقة ومعمقة.

وعليه، فإن دعوات الإصلاح أضحت قوية، وشروطه وملامحه بدأت تلوح في الأفق، وأصبح التغيير ممكنا بل ومطلوبا للانخراط في مسيرة التنمية وتأهيل المجتمع وأفراده للألفية القادمة، ومن شروط هذا الانخراط العمل على أن تصبح المؤسسة التعليمية فاعلة ومنفتحة على المجتمع ومتجاوبة مع المحيط الذي يكتنفها، وبالتالي الانفتاح على سائر المؤسسات والهيئات الاجتماعية.

تعمل المؤسسة التعليمية على أن تجعل من الطفل « رجل الغد» مواطنا صالحا قادرا على أن يواجه المشاكل التي يصادفها في حياته العملية والاجتماعية، في ظل هيمنة العولمة الشيء الذي يفسر اختيار تبني بيداغوجيات فعالة وطرق نشيطة[13] وتربية على القيم استعدادا لما يتطلبه المجتمع السيكولوجي المعاصر.

ولتحقيق ما تمت الإشارة إليه، يبدو أنه من الضروري العمل على إرساء علاقة تربوية سليمة وإيجابية داخل الفصل الدراسي وذلك بتوفير فضاء بيداغوجي ملائم صالح للمدرس(ة)، ووضع ميثاق شرف[14]

يسهر على إعداده كل الفعاليات التربوية يتضمن حقوق وواجبات كل من المدرس(ة) والمتعلم(ة) والعمل على تطبيقه.

لكن المشهور والراجح وما جرى به العمل عندنا، أن العلاقة التواصلية التربوية القائمة بين المدرس(ة) والمتعلم(ة) لا تحصل على الرضا المطلوب، نظرا لعدم الاستقرار الذي تعرفه من جهة، وكذا الإختلالات واللاتوازن التي يصيبها من جهة أخرى.

مما يفرض معه اقتراح حلول معينة وآنية والعمل على تطبيقها .

وعليه ينبغي التمييز بين مستويات من الحلول .

المستوى الأول : الحياة المدرسية

- إضفاء جو من البهجة والفرح على الحياة المدرسية بدل جو الصرامة والرتابة.
- الحياة المدرسية يجب أن ترغب في التعلم ولا تنفر منه .
- الحياة المدرسية ينبغي أن تكون مصدر متعة للطفل تبعث فيه الإحساس بالانبساط وروح العمل في العمل المدرسي.
- إتاحة ممارسة الحوار في المؤسسة المدرسية.
- خلق أنشطة تربوية وترفيهية داخل المؤسسة بشراكة مع التلاميذ وأوليائهم..... .

المستوى الثاني : تحفيز التلميذ

- إشراكه بكيفية نشيطة في البرمجة والإعداد والتنظيم (الخاص بالأنشطة)
- منحه فرصة كافية لاختيار الأنشطة التي تناسب ميولاته وقدراته مع مساعدته وإرشاده في ذلك.
- تثمين جهود المتعلمين(ة) وتحفيزهم على مزيد من البذل والعطاء.
- ترسيخ حس المبادرة والابتكار لديهم.
- تنمية سمة القيادة لديهم، وذلك بأن يقود المتعلم زملاءه في نواح، ويتبعهم في نواح أخرى خلق نوادي ومعامل وورشات تربوية..... .

المستوى الثالث: الإجراءات التي ينبغي وضعها رهن إشارة المدرسين(ة)

- تنويع طرق التدريس بدلا من الاعتماد على طريقة واحدة هي التلقين.
- تنويع وسائل التقويم بدلا من تبني وسيلة واحدة وهي الامتحان.
- إقامة علاقات متوازنة وتفاعلية بين المدرس(ة) والمتعلم(ة) أساسها التفاهم والاحترام والسعي إلى تحقيق الأهداف المشتركة.
- فتح آفاق التكوين والتكوين المستمر وتفعيل أساليبه.
- تشجيع التكوين الذاتي..... .

وبالجملة، فهذه شذرات مقترحات

وحلول تروم تجاوز بعض الصعوبات التي تحول دون تحقيق المكتسبات والأهداف المتوخاة، والتي تمكن من إرساء علاقات متينة بغية تكوين التلميذ تكوينا سليما في مبادئه وأخلاقه وأفكاره وتوجهاته.

إن موضوع العلاقات التربوية والبيداغوجية يحتم على كل من يريد البحث فيه التسلح بمعطيات الواقع من جهة، والبحث العلمي المعين على فهم ومقاربة الموضوع من جهة أخرى.

هذه المعطيات التي تتعلق بالمدرس (ة) والمتعلم(ة) باعتبارهما طرفين أساسيين في العلاقة، تنشأ بينهما تفاعلات وتأثيرات متبادلة لا يستهان بها. ومن جملة ما ينبغي التركيز عليه العوامل المتظافرة المتحكمة في سياق العلاقات التربوية القائمة ضمن مؤسساتنا التعليمية، والتي تلعب دورا كبيرا في إنجاح هذه العلاقات أو إفشالها.

هذا الفشل المحتمل هو الذي يحدو بنا إلى ضرورة اقتراح صيغ حلول معينة كفيلة بتذليل الصعوبات والتغلب عليها. مع ضرورة إبقاء باب الاجتهاد التربوي مفتوحا على مصراعيه لكل غيور على المؤسسة الوطنية كل من موقعه وحسب درجة مسؤوليته، بغية تكيف الجهود وحشد الهمم للانخراط الكلي لكافة الأطراف الفاعلة في أفق إصلاح منظومتنا التربوية التي تعتبر مقياس تقدمنا أو تخلقنا.

الهوامش :

1 -J.C.Filloux.Nature du groupe classe.p.17

2 - مقال تحت عنوان: مشكلات العلاقة البيداغوجية داخل المدرسة المغربية.للدكتور:عبد الحق منصف.الباحث في الفلسفة وعلوم التربية.منشور بمجلة دفاتر التربية والتكوين العدد01نونبر 2009.

3 - يقصد بالعلاقات التربوية العلاقات النفسية والاجتماعية والفكرية والمعرفية التي تنشأ بين المدرسين وطلابهم وهم منكبون على تربيتهم وتعليمهم وفق الأهداف التربوية المحددة من قبل النظام التعليمي.(نقلا عن المدرسة المغربية كما يراها المراهقون والشباب. الفصل التالت ص: 87 الطبعة الأولى 2009 منشورات مجلة علوم التربية –كما أوردت العديد من التعاريف لكبار الباحثين ك : M.Postic و R.Legendre و R.Hesse et Weignad .

4 - هناك العديد من الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع إما عن طريق تخصيص فصول من كتاباتهم لهذا الموضوع كالدكتورة رشيدة برادة في الفصل الثالث من مؤلفها: «المدرسة المغربية كما يراها المراهقون والشباب» أو عبر تخصيص مؤلف خاص كما هو الشأن بالنسبة للدكتور : سعيد حليم في مؤلفه : «علاقة المتعلم بالأستاذ» سلسلة المنظومة التربوية بالمغرب .

5 - يراد بها مستوى التفاعلات الأساسية بين الناس سواء كانت إيجابية أم سلبية

6 - المدرس والتلاميذ أية علاقة ؟ دراسة تحليلية نقدية للعلاقة التربوية لجماعة من الباحثين ص: 24 دار الخطابي للطباعة والنشر. الطبعة الثالثة دجنبر 1991 .

7 - والتي من أهم سماتها الطبيعة الجافة والمحافظة للتعليمات والقوانين التي تتحكم في عمل المؤسسات وتضيق الخناق على المبادرة الحرة مما يستدعي ضرورة إعادة النظر فيها.

8 - المدرس والتلاميذ أية علاقة ؟ دراسة

تحليلية نقدية للعلاقة التربوية لجماعة من الباحثين ص: 18 دار الخطابي للطباعة والنشر. الطبعة الثالثة دجنبر 1991.

9 – هذا المفهوم تم تناوله بالدراسة والتحليل بشكل جميل عميق ومعمق من قبل الدكتور يزيد عيسى السورطي في مؤلفه بعنوان : «السلطوية في التربية العربية» وهي دراسة من منشورات عالم المعرفة عدد 362 بتاريخ ابريل 2009 حاولت ملامسة مشكلة تربوية حقيقية هي السلطوية بأبعادها المختلفة وزواياها المتعددة. بدءا بمظاهرها ثم نتائجها وآثارها ووصولا إلى تقديم اقتراحات وتوصيات للتغلب عليها.

10 – المدرس والتلاميذ أية علاقة ؟ دراسة تحليلية نقدية للعلاقة التربوية لجماعة من الباحثين ص: 40/43/44 دار الخطابي للطباعة والنشر. الطبعة الثالثة دجنبر 1991 – بتصرف كبير– .

11 – يقصد بها الألفاظ والمصطلحات التي يستعملها المدرس لتأنيب المتعلم/ المخطئ وكذا حركات وملامح الوجه التي تبين إما رضى المدرس أو غضبه، ناهيك عن العقاب البدني.

12 – قضايا تربوية ورهانات جودة التربية والتكوين مقاربات سيكوبيداغوجية وديداكتيكية للأستاذين : العربي اسليماني ورشيد الخديمي/ مراجعة وتقديم عبد الكريم غريب / ص: 224 و 225. من منشورات عالم التربية . الطبعة الأولى 2005

13 – ومن صورها : التعلم النشيط الذي تقتضي فيه طبيعة الأنشطة المندمجة جعله مركز المجزوءات المخصصة لها، والتي تكتسي طابعا عمليا كلما أمكن ذلك، وتوفير الظروف المعززة لانخراط المتعلمين في أنشطة دالة تفضي إلى التعلم وتتيح التفتح الفني والأدبي والعلمي والتقني والرياضي.... بحسب هوايات وميول كل مجموعة .

– (نقلا عن دليل الحياة المدرسية دجنبر 2008 ص 102 مديرية التقويم وتنظيم الحياة المدرسية والتكوينات المشتركة بين الأكاديميات).

14 – أو ما يصطلح عليه بالعقد الديداكتيكي باعتباره مجموعة من القواعد التي تضبط ميكانيزم العلاقات التربوية بين الأستاذ والتلميذ.